

وثيقة السلام في المدينة المنورة



استقبلت المدينة المنورة رسول الله (ص) استقبالاً الحبّ والإيمان.. استقبلوه بالأفراح والأناشيد، فهو المصلح والمنقذ والهادي.. لقد انفتحت له القلوب والعقول قبل البلاد، وأسلم الناس بالاستجابة إلى دعوة الفكر وال الحوار.. وحين استقر الرسول (ص) بالمدينة وجد أنّ كلّ عناصر الدولة ومقوماتها متوفّرة بصورة فعلية.. الأرض والشعب والقانون والقيادة.. ولكي يتماسك البناء الاجتماعي والسياسي وينتشر الأمان والسلام.. وينتقل الناس من الفكر القبلي إلى فكر الدولة والمجتمع المدني المتحضر، استبدل العلاقات القبلية بالعلاقات الإنسانية والعقائدية والقانونية.. وأقام مبدأ المؤاخاة، بين المهاجرين والأنصار، وأزال الخلاف والأحقاد التي كانت بين قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة..

ثمّ خطّا الرسول (ص) خطوات سياسية سلمية أخرى في منهاج الدعوة الإسلامية، وهي كتابة وثيقة السلام وعدم اعتداء، وتبسيط الحقوق والواجبات بين المسلمين من جهة، وبين المسلمين واليهود في المدينة من جهة أخرى.. وكانت الوثيقة عبارة عن ميثاق للأمن والسلام، والتعايش في ظل العدل والتفاهم وتحديد الحقوق والالتزامات المتبادلة.. من المفيد أن نورد بعض نصوص هذه الوثيقة التاريخية ذات الطبيعة الشرعية، فإنّها أساس قانوني وتشريعي في الفكر الإسلامي، لكونها صادرة عن الرسول (ص).

جاء في هذه الوثيقة : "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي" (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثيرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنّهم أمة واحدة من دون الناس.." .

ثمّ تبديّت هذه الصحيفة المبادئ التي تحل بها المشاكل والنزاعات بطريقة سلمية.. فقد جاء في هذه الصحيفة أنّ كلّ قبيلة من قبائل المهاجرين والأنصار (يتناقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط) .

وَإِنْ هُمْ جَمِيعاً يَوْجِهُونَ الْعُدُوَانَ وَيَدْفَعُونَ الْمُعْتَدِينَ وَالظَّالِمِينَ.. جَاءَ فِي هَذِهِ الْوَثِيقَةِ: "وَإِنْ" الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دُسُنَيْعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدُوَانَ، أَوْ فَسَادَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهِ جَمِيعاً وَلَوْ كَانَ ولَدُ أَحَدِهِمْ..".

ثُمَّ جَاءَ فِي الصَّحِيفَةِ: "وَإِنْ" يَهُودَ بَنِي عَوْفَ أُمَّةً مُعَافَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينَهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ".

ثُمَّ جَاءَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ أَنْ لَبْقِيَّةُ قَبَائِلِ الْيَهُودِ وَمَنْ يَرْتَبِطُ بِهِمْ مَا لِقَبِيلَةِ بَنِي عَوْفٍ وَهُمْ يَهُودَ بَنِي النَّجَّارِ وَيَهُودَ بَنِي الْحَارِثِ وَيَهُودَ بَنِي سَاعِدَةَ وَيَهُودَ بَنِي جُشَمَ وَيَهُودَ بَنِي الْأَوْسَ، وَيَهُودَ بَنِي ثَلْبَةَ.

وَتَشِيرُ أَحَادِيثُ التَّارِيخِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَقَعُوا مَعَاهِدَاتٍ صَلْحٍ، وَعَقَدُوا الْعَهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ الْكَثِيرَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْآخْرِينَ.. مُثْلِ مِيثَاقِ السَّلَامِ الَّذِي وَقَعَ عَلَى الرَّسُولِ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْهِجَرَةِ، وَصَلْحٌ الْحَدِيبِيَّةُ، وَالصَّلْحُ مَعَ أَسَاقِفَةِ نَجَرانَ وَالرُّومِ فِي مَعرِكَةِ تَبُوكِ.. إِلَخُ، وَالْمَوَاثِيقُ، وَالْمُؤْكَدَةُ عَلَى احْتِرَامِهَا مِنْ قَبْلِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُبَرِّزَةُ لِجَانِبِ التَّعَايِشِ وَالسَّلَامِ مَعَ الْآخِرِ..

قَالَ تَعَالَى: (وَأَوْفُوا بِمَا عَاهَدْتُمْ إِنَّ الْعَاهِدَاتَ كَانَ مَسْئُولًا) (الْإِسْرَاءُ / 34).

(يَأَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِمَا عُهِدُوا) (الْمَائِدَةُ / 1).

وَقَالَ يَثْنَيْ عَلَى الَّذِينَ يُعْرَفُونَ بِالْعَهْدِ وَالْأَمَانَةِ: (وَالَّذِينَ هُمْ لَأَمَانَاتَهُمْ وَعَاهَدُوهُمْ رَاءُونَ) (الْمُؤْمِنُونُ / 8).

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) (النَّحْلُ / 90).

وَقَالَ سَبَحَانَهُ: (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الرُّؤْبُونُ الْأَلْبَابُ * الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ وَلَا يَنْهَاكُمُ الْمَيْتَاقَ) (الرَّعْدُ / 21-22).

وَقَالَ: (وَلَكُنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْأَيَّوْمِ الْآخِرِ وَالْمُلَائِكَةِ وَالْكَوَافِرِ وَالذَّبَابِ وَآتَى الْمَمَالِكَ وَآتَى النَّاسَ بَيْنَهُمْ لَهُمْ دَوِيَ الْقُرْبَى وَآتَى الْمَسَاكِينَ وَآتَى السَّائِلِينَ وَآتَى الرَّقَابَ وَآتَى الْمَسَلَةَ وَآتَى الرِّزْكَ كَاتَةَ وَآتَى الْمُوْفُونَ بِعَاهَدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَآتَى الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَآتَى الْمُتَّأْسِرِينَ الْأَبْيَاضَ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (الْبَقْرَةُ / 177).

(إِلا الَّذِينَ عَاهَدُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْعِدُوْكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَاهَدَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التَّوْبَةُ / 4).

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغْهُ مَا مَنَّهُ ذَلِكَ بِأَزْهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لَتَمْمُشُرِكِينَ عَاهَدُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدُوا تُمَّ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهِرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِي كُمْ إِلا وَلَا ذَمَّةٌ يُرْضِعُونَ كُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى فُلُوْبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسْقُونَ) (التَّوْبَةُ / 7-8).

(لَا يَمْرُرُ قُبُوْنَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلَا ذَمَّةٌ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُعَذَّدُونَ) (التَّوْبَةُ / 10).

(وَإِنْ زَكَّثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَاهَدْهُمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا يَأْتِمَانَ لَهُمْ لَعْنَتُهُمْ يَنْذِرُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا زَكَّثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوْ لَمْ يَرَهُمْ (النور / 12-13).

(أَوْ كُتُبَمَا عَاهَدُوا عَاهَدَهُمْ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (البقرة / 100).

وهكذا نقرأ تشريع نظام العهود والمواثيق، والتأكيد على احترامها والالتزام بها، لتحقيق الأمن والسلام، ويشكّل نظام العهود والمواثيق واحترامها أبرز طواهر الحياة الحضارية، والتعايش السلمي بين الناس.

وحين وصل رسول الله ﷺ (ص) المدينة المنورة عمل على بناء المجتمع المدني، على أساس ومبادئ للمواطنة والتباييس بين المسلمين وبين اليهود.. غير أنّ اليهود نقضوا فيما بعد هذه الصحيفة وتمموا على الرسول (ص) الدعوة والدولة، وخططوا مع قريش وحلفائهم للقضاء على الإسلام.

وجاء في هذه الصحيفة : "إنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على مَنْ حارب أهل هذه الصحيفة، إنّ بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنّه لم يأثم أمرؤ بحليفه، وإنّ النصر للمظلوم.." .

" وإنّه لا تجار قريش، ولا مَنْ نصرها، وإنّ بينهم النصر على مَنْ دهم يترب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنّهم يصالحونه ويلبسونه.." .

" وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.." .

" وأنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنّه مَنْ خرج آمن، ومَنْ قعد آمن بالمدينة، إِلَّا مَنْ ظلم أو أثم، وإنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنّه مَنْ خرج آمن، ومَنْ قعد آمن بالمدينة، إِلَّا مَنْ

لنعied قراءة ما جاء في هذه الصحيفة، قراءة تحليلية واعية ولنلتقط بعض نصوصها، وعندئذ سنجدها حقّاً وثيقة أمن وسلام وتعابير، ودعوة إلى الصلح، ونصرة المظلوم وسنعرف أنّ الجهاد هو دفاع وردّ للاعتداء.. وتلك المبادئ هي أسمى ما في القيم الإنسانية، ومبادئ المجتمع المدني المتحضر..

يمكننا أن نستخلص من هذه الوثيقة المبادئ الآتية:

1- إنّ أيدي المؤمنين جمِيعاً ومَنْ عاهدهم من اليهود على مَنْ بغي وظلم وأفسد، ولو كان ابن أحدهم.

2- إنّ اليهود الذين أقرُوا هذه الصحيفة أُمّة مع المؤمنين.

3- لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم.

4- إنّ أهل هذه الصحيفة من المسلمين واليهود بينهم النصر على مَنْ حاربهم، وعلى مَنْ دهم يترب (هاجمها) فهم ملزمون بالدفاع عن المدينة، وردّ الاعتداء عنها..

5- إنّ النصر للمظلوم .

6- على أطراف الصحيفة توقيع الصلح مجتمعين ممن يطلب منهم الصلح.

7- إنّ يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة.. أي يحرّم على الجميع أن يرتكب ما يخل بالأمن والسلام، أو يرتكب الظلم والبغى والإثم والعدوان، فهي مدينة آمن وعدل وسلام.

8- وإنّه مَنْ خرج آمن، ومَنْ قعد آمن في المدينة.. فالأمن حقّ للجميع.

9- إنّ الله ورسوله نصيران وحاميان لمن يفي بنصوص هذه الصحيفة، وإنّ الله سبحانه وتعالى (ص) جار لمن ينفذ ذلك.. يعني أنّ الدولة والأمة والأفراد مسؤولون عن تنفيذ هذه المبادئ والعمل بها..

والدراسة التحليلية لهذه الصحيفة لا تكشف عن الاعتراف بالديانات الإلهية، والتعايش مع معتقداتها بأمن وسلام وتعاون فحسب، بل وتعطينا نظرية في حقوق المواطن، وأنّ هذه الحقوق هي للمسلمين وغيرهم، ما زالوا متزمنين بالروح التي حوتها هذه الصحيفة.. ▶